الدكتور السيّد علي بدر الدين

عالمٌ موسوعيّ الثقافة إنسانيّ السمات

آب ٢٠١٥ – أ.د. دلال عبّاس

مقدّسٌ هذا الجبل، جبل عامِلةَ، كلّ يوم تراه في شأن، محدِّقًا بناظريه جنوبًا جنوبًا إلى أنْ يحين اليوم الموعود. نباتُه أدباءُ ومقاومون، وبذورُ أرضِه شهداءُ وعلماءُ منزرعون في جنباتِه.

عجيبٌ أمرُه، في يومٍ من الأيّام غائرٍ في التاريخ انهار سدٌّ مأرب، وتفرَّقتِ القبائل اليمانيّةُ أيدي سبأ، وكانت وجهةُ بعضِها بلاد الشام، ومن هذا البعض قبيلةُ اسمُها عامِلة استوطنت هذه البقعة التي سُميّت باسمها، وساكنت الكنعانيّين أقاربَها الأبعدين، وفيه بعدَ حينٍ من الدهر استحالَ الماءُ بيد المسيح عليه السلام خمرًا، وأعقب هذا الحدث سبعةُ قرون إلّا قليلًا، فرُئي فيه متجوّلًا رجلٌ قادمٌ من قلبِ الحجاز، اسمُه أبو ذرّ، نُفي من عاصمة الخلافة بتهمة التحريض على الثورة، لأنّه أشار بإصبعه إلى مكامن الانحراف في الدولة الإسلاميّة الفَتيّة بأيدي العرب الذين لم يُغادروا عصبيّتَهم القبليَّة والعائليَّة وبداوتَهم إلّا قليلًا، ولم يفهموا من الدين إلاّ الطقوسَ المفتقدَة المعنى. وبعد صفّين وخدعة التحكيم وتآلبِ الطلقاء والمنافقين وأهل الظاهر الجفاة على أمير المؤمنين، لجأ بنو هَمْدان وآخرون من أنصارِ عليٍّ إلى جبل عاملة يأسًا من صلاح أمرِ الأمَّة. وظلَّ هذا الجبل مثابةً وملجأً لأنصار عليٍّ وأهل بيته كلَّما دهمتهم داهيةٌ من الدواهي التي كانت تعصف بالأمَّةِ في ظلِّ الأباطرةِ من الحكّام المسلمين، وإن تلقّبوا بغير ذلك من الألقاب.

وفي جبلِ عامل المضمَّخ بتعاليم المسيح وتلامذته عَبَقَتْ وصايا عليٍّ (ع) وتعاليمُه، حَملتها إليه عقولُ مريديه، وأهلِ بيته جيلًا بعد جيل...

في يومٍ من الأيّام، في أوائل الربع الأوّل من القرن العشرين الميلاديّ، وُلِدَ لعائلة من آلِ عليٍّ الحالِّينَ أرضَ عاملة، يتوارثون كتابةً ومشافهةً حبَّ أهلِ بيتِ النبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، ومناهِجَهم، صبيٌّ سمّاه أبوه عليًّا، تيمّنًا بجدّه عليٍّ أعلمِ

المسلمين قاطبةً بعدَ النبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأقضاهم وأزهدِهم، وَأبعدِهم حكمةً وبصيرةً، ورؤيا تخترق الحُجبَ والأسوار...

حمَّل السيّد مصطفى ابنَه حملًا ثقيلًا، قبل أنْ يعرفَ إن كان المُسمَّى سيكون جديرًا بالاسم الذي حُمِّلَه، ولم يُخيِّب عليٌّ ظنَّ أبيه أو أمنيَتَه، كان طُلعةً منذ صغرِه، عَقَل وحَفِظَ ما تعلَّمَهُ صغيرًا، وكان تلميذًا نبيهًا وقارئًا نَهمًا، قرأ ووعى ما قرأ من القرآن الكريم ونهجِ البلاغةِ وكتبِ التراثِ المتوافرةِ لدى أهله، وفي محيطه، ثمَّ في الجامعةِ إلى جانبِ دراسةِ الطِّبِّ، كما يتبيَّن لنا من تراثِه النثريِّ والشعريّ، وما يُظهرُه هذا التراث من تجاوز صاحبه حدود النقل والاقتباس، وقد استحالَ المخزونُ الثقافيُّ على لسانه وبقلَمِه أدبًا تعليميًّا ممتلئًا حكمةً، موجَّهًا إلى الناس على اختلافِ طبقاتِهم وميولِهم ومشاربِهم، وشعرًا يُضاهي شعرَ الكبار، وأمثالًا سائرةً وآراءَ فلسفيّةً، جَرَت على لسانه ودوّنها قلمُه؛ وإذا كان الذين عاصروه قد عرفوه الطبيبَ اللامعَ، طبيبَ الفقراء، كما عَرَفوه محدّثًا لبقًا فصيحًا، وعلّامةً بليغَ العبارةِ، عميقَ التفكير، ساحرَ البيانِ، موسوعيَّ الثقافة، وسياسيًّا مؤمنًا بحقوق الإنسان، فإنّ ذلك كلَّه كان يمكنُ أنْ يذهبَ بذهابِ مُجايِليه ومُعاصريه، لو لم تُجمَع أشعارُه ديوانًا، ولم تُجمع مقالاته النثريّة وخُطبُه السياسيّة والدينيَّة والاجتماعيَّةُ كتابًا يوضعُ في متناول الأجيالِ القادمةِ، تتعرّف من خلاله فكرَ هذا المُصلحِ الكبيرِ، والمصلحون في كلّ عصرٍ ومِصرٍ قلَّةٌ قليلةٌ من ذوي البصيرةِ، يوظّفون ما حباهم الله به من مواهبَ وذكاءٍ في خدمةِ عيالِ الله، مؤمنينَ أنَّ الحياةَ الدنيا ممرٌّ إلى الحياةِ الأبديَّة، وأنَّ فعلًا حميدًا أو قولًا حكيمًا وأوراقًا يُنتفعُ بها، أرفعُ بدرجاتٍ من أموال قارونَ أو القصر الأبلق. ومَن كان واعيًا مثله مقاصدَ الدينِ الحنيف يعرف أنّ الأموال والجنائنَ والقصورَ زائلةٌ، وأنَّ العلمَ قد خلَّدَ أهله، والأدب خلَّد أصحابَه، وأغناهم بعد مماتهم، حتى أولئك الذين عاشوا في أثناء حياتهم الفانية القصيرة فقراء.

سارَ عليٌّ [الطّبيبُ الحكيمُ] على النهج الذي سار عليه من قبل الأعلام الذين صنعوا في العصر العبّاسيِّ الحضارةَ العربيّة- الإسلاميّة، وأنارت علومُهم وآدابهم الكرةَ الأرضيّة في ما بعد، وسارَ على خطى أعلام جبل عامل موسوعيّي الثقافة كصديقي البهائيِّ وتلامذتِه، سارَ على خطى الأعلام، فصار طبيبًا، وأديبًا شاعرًا حكيمًا، باحثًا عن الحكمة أنّى وجدها في مظاهر الطبيعة أو في بطون الكتب العربيّة وغير العربيّة، أجاد تشخيص أدواء الأبدان وأدواء المجتمع، وتعيينَ الأدوية المناسبةِ لكلّ منها.

الطبُّ بالنسبة إليه علمُ الأبدان، واجبٌ تُعلُّمُه مهنةً كريمةً، وخدمةً لأهل منطقته، لا سيَّما الفقراء منهم. بعد قرون من سياسة الإفقار والقمع والإهمال التي بلغت أقصى مداها في زمن الأتراك العثمانيّين، منذ اللحظة التي احتلّوا فيها بلاد الشام، وأرخوا بظلِّهم الثقيل عليها.

كان الدكتور السيِّد سيّدًا قولًا وفعلًا فـ:

إذا لم تكن نفسُ النسيبِ كأصلِهِ
وما قرَّبَتْ أشباهَ قومٍ أباعدٍ

فماذا الذي تُغني كِرامُ المناصبِ
ولا بَعَّدت أشباهَ قومٍ أقاربِ
(المتنبيّ)

كان عميقّ الإيمان يرى أنّ مُنكِر الدين إمَّا ناقصُ الحسِّ، سقيمُ الفكر، عليلُ النفس، مضطربُ العقل، وإمّا مُخادِعًا، مُنافقًا، يبتغي من وراء موضةٍ الإلحاد مأرَبًا خاصّـًا متحكّمًا متسلِّطًا...كان مؤمنًا بالإسلام دينًا حنيفًا، إنسانيًّا، لا تفاضُل فيه إلاّ بالتقوى والعمل الصالح، دينًا جامعًا لمكارم الأخلاق، مردّدًا في خطبه وفي أحاديثه الحديثَ النبويَّ القائل "لاتنظروا إلى كثرة الصلاة والصيام... بل انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة، وإلّا اختلط الخصوصُ بالعموم، وهَلَك الإمامُ والمأموم". لم يكن من أهل الظاهر الذين يمارسون الشعائر من غير أن يعقلوها، أو من الذين يعلّمون الناسَ البِرَّ وينسون أنفسَهم، أو من أولئك الذين يعتلون المنابرَ يعظون الناس، ويحثّونهم على البرّ والتقوى، لكنّهم لا يطبّقون ما يقولون عمليًّا، وإذا خَلَوا إلى أنفسهم فعلوا غير ما يعِظونَ به، كأنَّهم غيرُ مصدّقينَ ما يقولون... ومصداق رأيه في قول أمير المؤمنين: "لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير العمل...يَنهى ولا ينتهي، يحبُّ الصالحين ولا يعملُ عملَهم، ويُبغضُ المذنبين وهو أحدُهُم، تغلبه نفسه على ما يظنّ، ولا يغلبها على ما يستيقن، يصف العِبرَةَ ولا يَعتبِر، ويُبالِغ في الموعظةِ ولا يتَّعظ..."

يتساءل السيّد: "هل تعني عبادةُ الله غيرَ التقوى والمحبّة والبرّ والإحسان؟ أليست الأخلاق الحميدة هي جُماع الأخلاق التي لخَّصَها النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، بقوله: "إنّما بُعثت لأتمِّم مكارمَ الأخلاق"، لقد ركّزَ في خطبه الاجتماعيّة، والسياسيّة

والدينيّة، وفي شعره، على الخُلُق العظيم، والأخلاق الحميدة التي يجب أن يتحلّى بها الناس، وهو يخاطبهم على قدرِ عقولِهم، مقرّبًا الفكر بقولٍ مأثور، أو حكمةٍ أو موعظةٍ، أو قصّةٍ تمثيليّة على غرار كليله ودمنه، ونوادر جحا التربويّة الهادفة، ولا يتركُ القصَّةَ – المثلَ من دون أن يشرح العبرة، مطبِّقًا الدرسَ المستمدَّ والمُستخلَصَ منها على معاصريه من عامّةِ الناس ومن أهلِ الحُكْمِ.

أمّا المتديّنون فهم في رأيه، "إمّا متديّنٌ سطحيٌّ لا يتأمَّل ولا يتفكّر في مدى علاقة الخالقِ بالمخلوق، ولا يتجاوز حِسُّه الدينيُّ حدودَ المناسباتِ التي تكشفُ عجزه وقصورَه، أو من يمارسُ العباداتِ من دون المعاملات...وهنالك من ينطلق فكرُه من حسِّه هذا فيخترقُ الحُجُبَ، ويُحلِّقُ في أجواءِ العقلِ والحكمةِ، فيربِط العلَّةَ بالمعلولِ، ويوفِّقُ بين المقدّمةِ والمحصول، وينسق الغايةَ مع الوسيلة".

وردًّا على القائلين "إنّ الدين أفيون الشعوب" يقول: "قد يتستَّر وراء الدين نفعيّون في قلوبهم مرضٌ، كما أنَّ هنالك نفعيّين مثلَهم وراءَ الأحزاب والوطنيّات ووراء الزعامات والسياسات، ووراء كلِّ مثلٍ أعلى يتظاهرون بالغيرةِ عليه، ويُسرعون الخطى إليه... فالذنبُ ذنبُهم لا ذنبَ الدين، والنقصُ فيهم لا في السياسة، والعيبُ منهم لا من الزعامة، والفسادُ بهم لا بالزمان، وأولئك هم المفسدون، ليس الدينُ بممسكٍ صاحبَه عن العمل بما يعلم، والبحثِ عمّا لا يعلم، ولا بمانعه من استثمار خيرات الأرض حولَه... وما كانتِ المفاسدُ والمثالبُ والنقائصُ بين الناس، إلّا نتيجةَ الجرأةِ على الدين، وحصيلةَ الجنوحِ عن سنن الله وطاعته..."

كان يرى أنَّ "من أحبَّ الحياةَ غايةً بحدِّ ذاتها، قد طاشَ سهمُه، وطال همُّه، إذ كيف تكون غايةً بذاتها، والموتُ قد ساوى بينه وبين أحقرِ المخلوقات؟ والميكروب أقوى منه وأفتك، والطيرُ أجملُ منه وألطفُ، والنحلةُ أبرعُ منه وأحذقُ، والنملةُ أجملُ منه وأحرصُ".

وفي رأيه أنّ لا كرامةَ للإنسان ما لم تكن مستمدّة من كرامة الله، ولا خلود إلّا مع الخالدِ الأزليّ والحيّ السرمديّ، وفي سبيل هذه الكرامةِ استُشهِدَ الحسينُ بنُ عليّ عليه السلام... و"ما البكاء المألوف والمفروض على مصرعه العظيم إلّا وسيلةً يُرادُ بها إثارةُ الحميَّةِ ضدَّ البغيِ، وتأريثُ الحِقدِ على الظلم، وإيقاظ الحماسةِ ضدَّ كلِّ باطلٍ وفساد، لا بكاءَ الذلّة والمسكنةِ والخنوعِ، وإلّا فالمآتمُ قشورٌ بغير لُبابٍ، وحركاتٌ بلا أهداف".

لا يا سيّدي، لقد جاء من بعدِك قلَّةٌ - والمؤمنون منذ عصر النبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وإلى أن يرثَ الأرضَ الصالحون قلَّةٌ تآمر ويتآمر عليهم الأقربون والأبعدون- شبابٌ آمنوا بربِّهم، وطبّقوا نهج أئمّتِهم قولًا وفعلًا، وساروا على خطى الحسين الشهيد، فحرّروا أرضَ عاملَةَ، فتقدّست لأنَّها ضمَّت أجسادَهم الطاهرة، وهيَ الآنَ آمنةٌ وأسرابُ البومِ والغربان تعشعش في بلاد العرب...

كأنّي بالمقاومين قد سمعوك تقول: "على من يريد القربَ منه تعالى أنْ يدرّبَ نفسَه ويروّضها على ما انتهجه صاحبُ هذا العزاءِ من محبَّةٍ للحقِّ وإخلاصٍ لله، وتضحيةٍ في سبيله، وإعلاءِ كلمته، ومحاربةِ الفساد والبغي والفسقِ والفجورِ، والثباتِ على الحقِّ تجاهَ الباطلِ، وإلّا فالمآتمُ لهوٌ وتجارةٌ وعبثٌ وبكاء"...

نقرأ خطبَ السيّد السياسيّةَ وهو يشخّصُ أدواء الحكم الذي مَحَّصَه من الداخل، والسياسيّين الذين عرَفَهم من قرب، ويطنبُ الحديثَ عن الفسادِ الماليِّ والسياسيِّ، كأنَّه يتكلَّم على حالِ الدولةِ الآن وليس منذ أكثر من نصف قرن، وهذا الفسادُ المستفحلُ الذي يتمرَّغ فيه أهلُ الحكم اليومَ، كان السيِّدُ قد حذّر من الوصول إليه منذ أكثر من نصف قرن، وما يجري اليوم يبيِّن لنا بما لا يقبلُ الجدلَ أنّ الجمهوريّة هذه، إنَّما بُنيَت على شفا جرفٍ هارٍ، معرّضٍ للانهيار في كلِّ لحظة...

عظيمٌ هو، نبيلٌ، نزيهٌ، يتخلّى عن النيابةِ، وفي عصره، في لبناننا هذا من اشترى النيابةَ أو الوزارة بالمال للوجاهة وحبِّ الظهور، أو من اتخذ النيابةَ والسياسةَ سبيلاً لا للجاه وحده، بل لأكل الناس بالباطل. لم يعرف هذا البلدُ أحدًا غيره تخلّى عن النيابةِ- أو عن منصبٍ رفيع- فقط لأنَّه رأى أنّ الكرامة أهمُّ من المنصب ومن النيابة، وأنّ النيابة، ما لم تكن لخدمة الناس، ووسيلةً للمطالبة بحقٍّ من حقوقِ أهلِ منطقتِه، تلك الحقوقِ التي ظلَّت مهدورةً ومنتهكةً بعد ما سُمِّيَ بالاستقلال، كما كانت قبله في زمن الانتداب وفي زمن الأتراك وفي زمن المماليك...، فهيَ عنده كما كانت الخلافةُ بالنسبةِ إلى جدِّه عليٍّ عليه السلام كعفصةِ عنزٍ إن لم تكن لإحقاق حقّ...

هل يفعل ذلك إلّا من كان ممتلئًا حكمةً وقناعةً ورجولةً حقيقيةً، وشجاعةً معنويّةً لا تعدِلها شجاعة؟

وفي ذكرى سيِّد الشهداء يقول للسّاسة معاصري الحسين، ومعاصريه هو: "فلا يحسبنَّ الذين حكموا وتحكّموا أنَّهم ملكوا البلاد، واستمكنوا من رقاب العباد، فلقد

ملكوا الأشباح دون الأرواح، ودانت لهم الأبدان، لا القلوب، ولا الأذهان، وخضعت لسلطانهم الغرائزُ لا الأفكارُ ولا الضمائر، فهم حكّامٌ على تراب وأحجار، وهم سادةٌ على عبيدٍ وقطعان، وهم عبيدٌ في ثيابِ أسياد، ونعاجٌ في إهابِ آساد، سلطانُهم زائف ومجدُهم زائل، وذكرُهم دامس، وأثرُهم دارس، وخزيُهم باقٍ مقيم، وعارُهم دائم"..

هو يؤمنُ بأهمّيّةِ بوجود القائد الملهم وبدورِه، القائد المتميّز بالعقل النيِّر والضمير الحيِّ، ليكون رائدًا وقدوةً، لأنّ المحكومين يقلّدون الحكّام والمَسوسين يقلّدون السائس، والتائهون بحاجةٍ إلى دليل...وكما قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: "اثنان إذا صَلَحا صَلُحَ الناس، وإذا فسدا فسدوا: أمراؤهم وعلماؤهم".

أو كما قال عليٌّ عليه السلام: "لا ينبغي أنّ يقومَ على زعامةِ الناس البخيلُ، فتكونَ في أموالهم نهمتُه، ولا الجاهلُ فيكونَ في جهله ضلالُهم؛ ولا الجافي فيقطعَهم بجفائه، ولا الخائفُ فيتّخذَ قومًا دون قومٍ، ولا المرتشي فتضيعَ حقوقٌ دون حقوق، ويشيع الباطل..."

من كان صاحبُ هذا الكلام قدوتَه، لا يستكثرنَّ أحدٌ عليه استقالتَه من مجلس نوابِ بلدٍ ساستُه في معظمهم ينطبق عليهم هذا القول.

أمَّا المثقّفون والمتأدبون والوعّاظ والإعلاميّون فأكثرهم منذ القدم وحتى اليوم يقولون ما لا يفعلون، أو يجعلون علمهم وثقافتهم دينيَّة أم غير دينيَّة وسيلةً للارتزاق ولو بالتغاضي عن قولِ الحقّ، يقول:

"ألا فليتريَّثِ الكتَّابُ والأدباءُ والخطباءُ، والمتشرّعون، ولْيُهادنوا الناسَ وليستريحوا ويُريحوا، وليُضربوا إضرابًا شاملًا عن الكتابةِ والخطابةِ... نحنُ بحاجةٍ إلى أخلاقٍ لا يُغني عنها علمٌ أو مالٌ أو سلاحٌ، أو أمجادٌ غابرة أو سؤددٌ سالف، ولا سيَّما بعد **فضيحةِ فلسطين** وما سيتبعها من فضائحَ، وعارٍ إثرَ عار"..

كأنّه كان يستشرف ببصيرتِه أنّ الأعراب الذين باعوا فلسطين لِشذّاذ الآفاق، سيبكونها في ما بعد، وسيستعْدون من يدافعُ عنها، ويقفون في صفِّ أعدائها علنًا ومن دون قناع الحياء المصطنع، وأنّ العارَ سيتلبّسهم من فوقِ رؤوسهم ومن تحتِ أرجلهم... إلى أن تميدَ الأرضُ بهم...

والحمد الله أنّ هذا السيّد الدكتور لم يرَ مثقّفي اليوم في بلاد العرب، وقد أحنوا رؤوسَهم إلّا مَن عَصَمَ ربُّك، وباعوا أقلامَهم وألسنتَهم بدراهم تفوح منها رائحة النفطِ والعهر، والحمد لله أنّه لم يقرأْ ولم يرَ ما يفعله سدنةُ الهيكلِ وحرّاسُ البيتِ الحرام، من إثارةٍ للفتن التي وصفها بقوله: إنّ الفتن لا تفعل سوى "إيقاظِ الغرائز وإشعال النوازعِ، وإثارةِ الخواطرِ، ونَشر المخاوفِ، وإطلاقِ الأكاذيبِ والأراجيفِ، وافتعالِ ما يهيّج العواطف، ويُظهر المطامعَ. كلُّ ذلك يُنيمُ إنسانيّةَ الإنسان، ويُطلِقُ الوحشيَّةَ فيه من العقال"...

إنّه الصراع الدائمُ في المجتمعات بين الحقّ والباطل، وبين الخير والشرّ، وهو الصراع الدائم في نفس الإنسان بين نوازع الخير ونوازع الشر، الذي لا يمكن استئصاله برأيه من نفس الإنسان، أو التخفيف من آثاره إلّا في التركيز تربويًّا على تنميّة العقل لأنّه هو الذي يميّز الخير من الشرّ، وعلى الأخلاق القويمة...

أمّا العلم فهو في رأيه أعظمُ نعمةٍ لكنَّه قد يستحيل نقمةً وبلاءً إنْ ضلَّ السبيلَ فأهلُه شرٌ على الدنيا من الجهلاء... إنّ العلمَ يمكن أن يكونَ شرًّا على البشريّة ما لم يوضع في خدمةِ الأخلاق، يقول:

"وإذا كان زيادُ بن أبيه في عصر الدكتاتوريّة الأمويَّة قد قالَ للناس يومَ ولّاه معاويةُ الكوفةَ: "والله لأخذنَ الوليّ بالمولي والصحيح بالسقيم، والمطيعَ بالعاصي، والحاضرَ بالغائب...أو تستقيمَ قناتُكم"، ثمّ قال لأحد الزعماء: "إنّنا والله لن نبلُغَ فيك وفي أصحابِك ما نريد حتى نخوضَ إليكمُ الباطلَ خوضًا"... فإنّ الجبارين في عصرنا الحاضر يخوضون الباطلَ خوضًا، إنّما ليس بالسيوف بل بما قدّمه إليهم التقدّم العلميّ من آلات دمارٍ تحرق وتهدّم وتقتل الأطفال والعجائز من دون أنْ يرفَّ للعالم المسمّي نفسه متحضرًا جفنٌ أو تدمعَ عين...

هذا لأنَ العلم كما يقول: "يمكن أن يكون شرًّا على البشريّة مالم يوضع في خدمة الأخلاق"، والحياة في رأيه قد تطوّرت إنّما في الإطار الماديِّ وحده، والجاهل الشرّير قد يقتل رجلًا، لكنّ العالِمَ الشرّير يقتل شعبًا بأكمله..."

وكطبيب يقول: إنّ قدرًا صغيرًا من الشرِّ قادرٌ على نسف صروح الخيرِ كلِّها، وإنّ جرثومةً لا تُرى بالعين المجرّدةِ تصرعُ البطلَ الصنديدَ، وإنّ ذرّةً من السمّ تُحيلُ الماءَ

الفراتَ إلى الموتِ الزؤام، وإنّ صبيًّا صغيرًا، حقيرًا، مخبولًا لقادرٌ على أن يهدِمَ قصرًا منيفًا على رؤوس ألفِ فيلسوف...

نرى هنا في كلّ ما قال السيّد ومثّلَ تداخلَ علومِ الطِّبِّ والفلسفةِ والاجتماع والسياسةِ: كلّ واحدٍ يخدم الآخر، فإذا كان ابن المعتزّ قد وصف ماعون بيته كما قال عنه ابنُ الروميّ، فإنّ السيّدَ الطبيبَ يُشبّه أمراض المجتمع وأشرار البشر بالجراثيم والميكروبات التي تصيبُ جسدَ الإنسان... فإنْ أُصيبَ عُضوٌ، تداعَتْ له سائرُ الأعضاء بالسهرِ والحمّى...

إنّ خيرَ ما يمكن أن نختم به هذه المقالة- والسيّد الدكتور لا تفيه حقّه عشرات المقالات- قوله:

"إنَ الحياةَ قد تطوّرت أساليب عيشها وتقدّمت وسائلها وأشكالُها، كلُّ ذلك في الإطار المادّيّ، وما يتناولُ منها العَرَضَ لا الجوهرَ، والجسدَ دون الروح أو النفس. أما الحكمة والحكماء والشرف والشرفاء، والفضل والفضلاء فقد كان للإنسانيّة نصيبٌ وافرٌ منهم في ما مضى من العصور والقرون، وليس لتطوّر الأساليبِ وتقدّمِ العلومِ فضلٌ في وجودِهم اليوم...

"إنَ مكتشفاتِكم معجزةٌ تدعو إلى الإعجاب والثناء، لكنّها لأدواءِ المجتمع ليست بعلاج... فهي مجرّد وسائل عديدة وطرائق مستحدثة، لنمط معيّن من أنماط العيش، تهدّدُ المجتمعَ البشريَّ وتُنذرُ بإبادته..."